رسائل من دفتر مجاهد

خفق البنود في بيان ما ينبغي أن يكون عليه الجنود

بقلم: أبي الأشبال المغربي

منشورات ربيع الأول 1438هـ

مؤسسة المسلمة إفريقيا

خفق البنـــود..

في بيان ما ينبغي أن يكون عليه الجنود

بقلم: أبي الأشبال المغربي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

الإهداء..

أهدي هذه الرّسالة إلى المجاهدين الميامين، معاقد الأمل ورجال العمل..

أهديها إلى رجال التوحيد وفرسان العقيدة الذين نحسبهم يسدّون ثغرة للمسلمين بارك الله فيهم، وسدد خطاهم وزادهم ثباتا وشموخا..

فأولئك الذين وقفوا على ثغور أمتهم، يرمون من رماها ويحمون من حماها؛ لا بد من إكرامهم وإعزازهم والاحتفاء بهم، وأسأل الله أن يكون هذا الإهداء من ذاك..

قبل القراءة:

يا نـــاظرًا فيما عنيتُ بجمــعه   عذرًا فـإنّ أخـا الفضيلة يعـذرُ
علمًا بأنّ المرء لو بلـــغ المدى   في العمر لاقى الله وهو مقصّـرُ
فإذا ظفرت بزلّة فافتـــح لها   باب التجاوز فالتجاوز أجْدَرُ
ومن المحال بأن ترى أحدًا حوى   كُنـه الكمال و ذا هو المتعـــذّرُ

فإذا وجدت العيب فسدّ الخلل (يرحمك الله)..

مقدمة لا بد منها (فحَضِّر قلبك، وَألْقِ سمعَك):

أيها الأخ المجاهد؛ إن طريق الجهاد العملي واسع طويل شاق في ظاهره حلو يسير مبارك في باطنه، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** العنكبوت الآية: 69، نعم.. هو واسع فسيح وباب يُذْهب الله به الهمّ والغمّ «**عليكم بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى؛ فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم**» (الحديث)، **ولكن يتنغّص إذا لم نُقدِّم له شيئا!، ولم نُضَحِّ من أجله!، ولم نَتَّبع سننه! فَمَنْ وَفَّى وُفِّي له؛ وإلا فلا..**

ولقد رأيت أن من البيان والنصيحة أن نكتب هذه الكلمات لإخواني المجاهدين، عسى أن تنفعهم ـ بإذن الله تعالى ـ وهي كلمات أكتبها في ظرف يلزمنا فيه الكثير من النشاط، والجد والكد والفهم للسنن، فالأمانة عظيمة والمهمة تنوء بالعصبة أولي القوة، والعمل لهذا الدين مسئولية الجميع؛ كلٌ بما يستطيع..

وإني أعلم ـ كما يعلم غيري ـ بأن في قلوب الكثير من المجاهدين جذوة الخير تتوقّد ولله الحمد، وهي جذوة تتوقد مرة وتخبو أخرى.. وهذه طبيعة النقص التي جُبِل عليها البشر.. ولذا؛ فإن هذه الجذوة تحتاج إلى رعاية فائقة لتزداد الشعلة اتقادا، فيؤخذ منها قبس من نور، لتشقّ طريقها نحو الهدف المنشود، برجال أصحاب قلوب صادقة، وهمم عالية، لا تثنيهم الصعاب، ولا تعرقلهم العراقيل، وهنا يبرز دور الراعي وأعوانه، قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» (البخاري ومسلم)..

يقول الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى: **﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾**، (النمل الآية20) قال: (من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها، ويتعرف أحوالها؛ إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها.

يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها، ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها. وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها، حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها.

فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه، قد تولى التفقد بنفسه، ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لو أن سخلة[Œ] بشاطئ الفرات يأخذها

Œ السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد. جمعها سَخْل وسِخالٌ وسُخْلان (المعجم الوسيط: [ص:422].

الذئب ليسألنّ عنها عمر».

وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع في الأمم والجماعات، والأسر والرفاق وكل من كانت له رعية) اهـ.

وقد صُنِّفت في باب: (حقّ الراعي على الرعية) مصنّفات وهي مشهورة، فلينظرها مريدها وفّقه الله.

ـ وعملا بالواجب جاءت هذه البنود المنتظمة، كخطوة ضرورية ـ بإذن الله تعالى ـ على طريق الإصلاح، إذْ ينبغي إذا شيك الجهاد بشوكة أن تقلع على الفور!..

فلا بد من رأب الصدوع وجمع الصفوف، وردّ العلل
ولا بد من قصد ذات الإله وحشد القوى ليصحّ العمل

فلينظرها الجندي المجاهد المخلص على أنها ذكرى ونصيحة كما تقدم، فلا بد من التذكير والتناصح، وليكن لسان الحال والمقال:

تبشّر عني بالوفاء بشاشتي وينطق نور الصدق فوق جبيني

وليعلم بأن هذه البنود امتداد لسابقتها (العشر الجياد، لأمراء السرايا والكتائب والأجناد)، فالأولى تطرقت لواجب الأمير تجاه الرعية، والثانية تطرقت لواجب الرعية نحو الأمير.

وقد قسّمت هذه الرسالة إلى مقدمة، ومسائل، وخاتمة، وأما المسائل فقد احتوت الرسالة على ثمان مسائل، وهي:

الأولى / السمع والطاعة في المكره والمنشط.

الثانية / توقير الأمير والدعاء له.

الثالثة / تقديم النصح للأمير.

الرابعة / الابتعاد عن النجوى والتخطيط دون علم الجماعة.

الخامسة / الجدية في العمل وعدم أخذ أوامر القيادة بالرخاوة.

السادسة / الحرص على التفقه في الدين خصوصا والتوعية العامة عموما.

السابعة / إن لم يقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟ (ضرورة تحمل المسؤوليات).

وأما الخاتمة؛ فقد جعلتها تذكرة سريعة وتنبيها عابرا حول الصراع والحرب المعلنة على الإسلام وأهله، وكيف يجب أن يكون موقفنا منها كمسلمين، وذيّلتها باعتذار واستغفار، وطلب الدعاء من كل من يقرأ هذه الرسالة، تقبل الله منا ومنه، ونسأل الله أن ينفع بها كاتبها وقارئها، آمين آمين..

تنبيه: الرسالة كُتِبت لتعالج واقعا معينا في بعض الجبهات، وليس الغرض من تأليفها الإحاطة بكل ما يجب على الجنود، واقترح أحد الإخوة الأفاضل أن تعمّم وتنشر للفائدة، فحصلت الموافقة وتُرِكت الرسالة كما هي؛ فإلى سياقها ولتكن البداية بـ:

*　　　*　　　*

أولا: السمع والطاعة في المكره والمنشط (وبدأنا بها لأهميتها في العمل الجماعي الجهادي الدعوي):

جاء في كتاب (العمدة في إعداد العدة/عبد القادر بن عبد العزيز) ـ **تحت فصل:(ما يلزم الأعضاء في حق الأمير عليهم):**

(**السمع والطاعة لولاة الأمور عبادة**، إذ إن طاعتهم من طاعة الله عز وجل والسمع والطاعة من أهم أسباب اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم، ففي طاعتهم حسم لاختلاف الآراء التي تؤدي إلى التنازع والشقاق وذهاب الشوكة) اهـ.

أما عن أدلة وجوب السمع والطاعة، فهي كثيرة، والحجج واضحة منيرة، وهذه بعضها:

قال الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهَّ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا**﴾ النساء الآية: 59.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يَعصِ الأمير فقد عصاني**».

وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ : «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكَرِه ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» .

جاء في كتاب (العمدة): (وهذا يقيد ما ورد في الأمر بالطاعة وأنها في غير معصية الله، وأقول المعصية ما دل عليها حكم شرعي صريح، أما إن كان فعل الأمير أو قوله يحتمل عدة أوجه فلا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد التبيُّن.

وأقول أيضا يستثنى من المعاصي أمران:

الأول أن يمنع الأمير رعيته بعض حقوقهم، والثاني أن يستأثر بحظ دنيوي دونهم **فتجب الطاعة** وإن وقع الأمير في هذا **ويُنْصَح**، وذلك للأحاديث:

الأول: عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجُعفي رسول الله ﷺ: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال رسول الله ﷺ : «**اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**» ، فالطاعة واجبة وإن منع الأمير حق الرعية.

الثاني: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: **دعانا رسول الله ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا**

عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِّ فِيهِ بُرْهَانٌ» . قال ابن حجر «**فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا**» أي في حالة نشاطنا وفي الحالة التي نكون فيها عاجزين عن العمل بها نؤمر به، ونقل ابن التين عن الداودي أن المراد: الأشياء التي يكرهونها قال ابن التين: والظاهر أنه أراد في وقت الكسل والمشقة في الخروج ليطابق قوله منشطنا.

قلت ـ مؤلف كتاب العمدة ـ: ويؤيده ما وقع في رواية إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن عبادة عند أحمد **(في النشاط والكسل)**، قوله **(وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا)** في رواية إسماعيل بن عبيد **(وعلى النفقة في العسر واليسر)**.. قوله **(وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا)**، قال حاصلها الاختصاص بحظ دنيوي.

والمراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم)، وورد أيضا حديث أبي هريرة مرفوعا «**عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك**» .

وقال النووي: (قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية ـ إلى قوله ـ والأثرة هي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم، وهذه الأحاديث في السمع والطاعة في جميع الأحوال، **وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم**] .

قلت: ولعل الحكمة في أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة للأمراء وإن منعوا الناس حقوقهم أو استأثروا بحقوق الدنيا دونهم، هو ارتكاب أخف الضررين، **فإن تضرر الرعية بهذا المنع والأثرة أخف من ضرر الخروج على الأمراء، وما يتبع ذلك من الاختلاف والتفرق..**) اهـ.

ثم قال المؤلف بعد كلام له قد سبق:

(ما يُستَخلص من أدلة وجوب السمع والطاعة:

أ ـ الطاعة واجبة في المنشط والمكره وليس في المنشط فقط، **بل يمكن القول بأن الاختبار الحقيقي لصدق الطاعة لا يكون إلا في المَكْره**، فالكل يطيع في المنشط أي في الأعمال اليسيرة أو ذات النفع العاجل أو المحببة إلى النفس، أما في المكره وهو مالا ترغبه النفس من أعمال فلا يطيع حينئذ إلا الصادقون، ويمكن القول كذلك إن الطاعة في المكره فيصل بين المؤمن والمنافق، الذي غالبا ما يطيع في المنشط دون المكره ودليل ذلك:

* قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِّ لَوْ**

اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ، فهؤلاء يطيعون في المنشط (الغنيمة السهلة القريبة) لا المكره (السفر الشاق البعيد) ثم هم يتعللون بالأعذار المختلفة المكذوبة حتى لا يخرجوا، وهكذا المنافق إذا أمره الأمير بأمر مكروه شاق، اختلق الأعذار ولو بالكذب حتى لا يفعل.

* قوله تعالى: **﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾**، وهؤلاء تخلفوا عن الجهاد (المكره)، وسارعوا في طلب الخروج إلى الغنيمة (المنشط).

* قوله تعالى: **﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾**.

قلت: ولذلك فإن المكاره التي يُبْتَلى بها المؤمنون هي رحمة لهم إذ بها يتميز المؤمن من المنافق، وكلما اشتدت المكاره كلما انكشف المنافقون، كما قال تعالى في غزوة أحد: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾**، وقال تعالى: **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ﴾**.

والنفاق خصال وهو يتبعض، **فمن قعد عن الطاعة في المكره، كان فيه من النفاق بحسب قعوده ما لم يكن معذورا.**

ب ـ **الطاعة واجبة في العسر واليسر**، والذي ذكره ابن حجر في الشرح: [أي أن ينفق المسلم في سبيل الله في فَقْرِه وغِنَاه]، ويمكن تأويله كذلك بأن على المسلم الطاعة في حالة ضيق النفقة أو سعتها على الجند كما كان الحال في غزوة تبوك، كان الصحابيان يقتسمان التمرة الواحدة، وقال تعالى: **﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾**، وسُمِّيَ هذا الجيش جيش العسرة، ولعل السر في تقديم العسر على اليسر في حديث عبادة «وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا» وفي حديث أبي هريرة «وعسرك ويسرك» أن العسر كان هو الغالب على حياة الصحابة زمن النبي ﷺ..

ج ـ **السمع والطاعة حق وإن ارتكب الأمير بعض الأخطاء الشرعية**، تطيعه في طاعة الله، ولا تتابعه في خطئه إن أخطأ، والمقصد من هذا: أن ارتكاب الأمير لبعض الأخطاء ليس مبررا للخروج عليه والسعي في خلعه عن إمرته، فكل ابن آدم خطاء، بل الصواب أن تطيعه في طاعة الله، ولا تطيعه في معصية الله تعالى، وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر.

وقد وقع شيء من هذا من الأمراء على عهد رسول الله ﷺ ـ راجع بعض الأمثلة في كتاب العمدة ـ.

د ـ الطاعة واجبة وإن منع الأمير حَقَّ بعض الناس أو استأثر بشيء دونهم وسبق شرح هذا، وبيان أن الضرر الأخف يُتَحمل لدفع الضرر الأشد، وأنه قد يُظَن أثرة ما ليس بأثرة، وفي هذا تطبيق لقاعدة شرعية أخرى وهي أن الضرر الخاص (بالمنع والأثرة) يُتَحمل لدفع الضرر العام (التفرق والاختلاف)، وعن عبادة بن الصامت مرفوعا «**اسمع وأَطِع في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأَثَرة عليك، وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك**».

وقال صاحب العقيدة الطحاوية: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة).

هـ ـ السمع والطاعة حق، وإن كان الأمير حقير الحسب والنسب، أو كان قبيح المنظر أو كان صغير السن، طالما انعقدت إمارته بطريقة شرعية، بتأمير الأمير الأعلى له أو باختيار أتباعه له، وذلك لحديث: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**» .

و ـ السمع والطاعة حق، وإن ساس الأمير رعيته بالأمر المفضول دينا، وقد فَصَّلتُ هذا في الباب الرابع..

ج ـ **ويدخل في الطاعة أن يقبل كل أخ العمل المكلف به من قِبَل الأمير وإن كان لا يحبه، ولا يأنف من عمل في سبيل الله ولو كان حقيرا**، كما في حديث أبي هريرة مرفوعا: «**طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعَثَ رأسُه، مُغْبَرَّةً قدماه، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة**» ، فهذا عَمِلَ حيث وضعه أميره في الحراسة أو في الساقة بلا ضجر أو تأفف، فاستحق دعاء النبي ﷺ له.

د ـ **ويدخل في الطاعة ألا ينصرف أحد مِن عملٍ أو مكانٍ إلا بإذن أميره أو حسب التعليمات المسبقة وكذلك لا يغادر أحد المعسكر إلا بإذن**، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾، وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية على وجوب استئذان العسكر للأمير، فقال رحمه الله: (باب استئذان الرجل الإمام) لقوله تعالى ـ وذكر الآية ـ ثم أورد حديث جابر بن عبد الله أنه كان في غزوة مع النبي ﷺ، قال جابر (فقلت يا رسول الله، إني عروس فاستأذنته فأذِنَ له فتقدمت الناس إلى المدينة) .

وقال ابن قدامة الحنبلي: (لا يخرج من العسكر لتعلّف ـ وهو تحصيل العلف للدواب ـ ولا لاحتطاب ولا غيره إلا بإذن الأمير، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ**

يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ولأن الأمير أعرف بحال الناس وحال العدو ومكانتهم ومواضعهم وقربهم وبعدهم، فإذا خرج خارج بغير إذنه لم يأمن أن يصادف كمينا للعدو فيأخذوه أو طليعة لهم أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك).

وقد عَلِمْنا ما أصاب المسلمين من الهزيمة يوم أُحُد بسبب انصراف الرماة من مواقعهم دون إذن الإمام (الرسول ﷺ) الذي قال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**» ، فلما رأوا أن العدو قد انهزم تركوا مواقعهم وأسرعوا إلى الغنائم، فالتف العدو من خلفهم حتى كان ما كان من هزيمة المسلمين.

فلا ينبغي لأحد من أن يستهين بإذن الأمير وأمره ونهيه حتى لا يختل النظام العام.

هـ ـ ويدخل في الطاعة: طاعة أمر الأمير المكتوب تماما كالأمر الشفهي..

ثم قال المؤلِّف تحت عنوان (ما يُقَيِّد السمع والطاعة للأمير):

(يقيِّدهما أمران: المعصية من جهة الأمير والاستطاعة من جهة المأمور.

أ ـ أما المعصية فقد ذكرت أدلتهما فيما سبق، ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أَحَب وكَرِهَ ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»، فلا يطيعه في المعصية ولكن لا يخرج عليه ولا يخفى أن هذا ـ عدم الخروج على الأمير والصبر عليه ـ هو الواجب بقوله ﷺ : «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ**» ، هذا كله مقيد بما إذا وقع الأمير في الكفر الصريح أو البدعة المُكَفِّرة، لقوله ﷺ : «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»..

ويجدر بنا هنا التنبيه على التصرف الواجب فيما إذا كان نزاع بين الأمير وبين أحد أتباعه، ويختلف التصرف حسب ما إذا كان الأمير له أمير أعلى منه أم لا؟.

فإذا كان هذا الأمير له أمير أعلى منه، فيشتكي الأتباع أميرهم إلى أميره الأعلى، وقد سبق قريبا شكاية الصحابة أمراءَهم في الغزو (خالداً بن الوليد في سرية بني جذيمة وعبد الله بن حذافة في سريته، وعمراً بن العاص في غزوة ذات السلاسل) إلى النبي ﷺ فقضى النبي ﷺ بخطأ كلٍ من خالد وعبد الله بن حذافة وبصواب فِعْل عمرو.

أما إذا لم يكن للأمير أمير أعلى منه، فتؤول الخصومات بينه وبين أتباعه إلى التحكيم، يتراضيان على رجل يحكم بينهما، وسبقت الإشارة إلى هذا في نهاية الباب الثالث من هذه الرسالة، وتحاكم عمر بن الخطاب

وأعرابي إلى شريح العراقي، فأُعجِب عمر بحكم شريح فولاَّه القضاء، وسبقت أمثلة أخرى.

وفي الدولة المسلمة يجوز لآحاد الرعية مقاضاة الإمام فمن دونه من العمال عند القاضي.

ب: وأما الاستطاعة من جهة المأمور، فدليلها:

ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (**كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: فيما استطعتم**) .

وما رواه البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فَلَقَّنَنِي «**فيما استطعت، والنصح لكل مسلم**».

وروى البخاري عن عبد الله بن دينار قال: (لما بايع الناس عبد الملك كتب إليه عبد الله بن عمر: إلى عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بني أقروا بذلك) .

والطاعة فيما يستطيعه المرء مندرجة تحت الأصل العام الوارد في قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾، وقول النبي ﷺ: «**وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فأتوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، وهذا أمر يعلمه الله تعالى من العبد فإن نَكَلَ عن الطاعة مدعيا عدم الاستطاعة كاذبا، فالله مُطَّلِع عليه، ﴿**وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾.

والمقصد مما سبق أن عهود الأمراء على الطاعة ينبغي أن تقيد بهذين القيدين: المعصية من جهة الأمير والاستطاعة من جهة المأمور) اهـ.

ثم قال المؤلِّف في خاتمة مبحثه هذا:

(ج: وهناك من يدخل في الجماعة ثم يأنف من السمع والطاعة، **وهذه من خصال الجاهلية** كما سبق في شرح حديث «**من فارق السلطان شبرا مات ميتة جاهلية**»، وقد ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه (مسائل الجاهلية) المسألة الثالثة (**مخالفة ولي الأمر**).

د ـ وهناك من يتظاهر بالطاعة ويُبَيِّت العصيان والإفساد، **وهذا أيضا من النفاق**، لقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا**﴾، وهذا الصنف تراه لإثارة الأتباع على الأمير متلمسا أوهى الأسباب ككون الأمير ذا أثرة أو كونه مفضولا دينا أو صغير السن..

هـ ـ ومن الناس من يطيع في المنشط دون المكره فإذا كُلِّف بأمر شاق أو بما لا يهوى عصى، ومنهم من يطيع في اليسر وسعة النفقة فإذا كان العسر وضاق الحال عصىٰ، وقد يكون العصيان صريحا أو ضمنيا.

وهذه النماذج وأكثر منها موجود في التجمعات الإسلامية وتسبب فسادا لا يخفىٰ، وقد وُجِدَ بعضها في زمن النبي ﷺ كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ**﴾، فكيف بالحال من بعده ﷺ؟.

هذا وقد فَصَّلت مسألة السمع والطاعة لولاة الأمور، **ذلك لأنها الركن الركين في سياسة الجيوش وتنفيذ المهام، والتفريط فيها قد يدمِّر الجيش كله**، قال تعالىٰ: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾، وكلنا يعلم ما أصاب المسلمين يوم أحد بسبب معصية الرماة لأمر النبي ﷺ، فكانت المصيبة عامة ولم ينج منها حتىٰ رسول الله ﷺ أصيب بعدة جراحات يومئذ.

وأذكِّر الإخوة المسلمين بأن الطاعة هي التي تجعل من جيوش الكفرة قوة متسلطة علىٰ رقاب المسلمين في أنحاء الأرض، فكيف يكون [هذا] شأنهم ونظل نحن متفرقين مختلفين مع أننا نتعبد لله بالجماعة وبالسمع والطاعة كما في حديث الحارث الأشعري مرفوعا «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: الجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ**» . ومع أننا كما قال الله تعالىٰ: (وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ)، وقال الله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾.

إن طاعة الأمير من طاعة الرسول ﷺ، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه، وكذلك معصية الأمير، وهذا ينطبق علىٰ كل أمير تولىٰ بأمر الشارع وشريعته، حتىٰ أمير الثلاثة في السفر، إذ قد سَمَّاه النبي ﷺ أميرا، ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾، ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا**﴾.

وهذا أوّل ما يلزم الأعضاء في حق الأمير عليهم، وهي الطاعة) اهـ من كتاب: (العمدة) ولقد أطال صاحبه النَّفَس في تلك المسألة، لأن السمع والطاعة ـ في المعروف ـ شأنها عظيم كما رأيت، فاستقم كما أُمرت، فذلك خير لك ولجهادك..

وكن أيها الجندي كالسـهم في ممرّه، وأميرك هو عبد الله الرامي به، فالرجل كل الرجل، مَنْ تُـتَّقى به المكاره وتُـسدّ به ثغور هذا الدين ـ ومنه هذا الجهاد ـ فتوكل على الله واستعن به، وتأمّل هذه القصة وهي نموذج من نماذج السمع والطاعة عند سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، ولو نظرنا وتأملنا بعمق وتدبر فيما كان عليه أسلافنا من السمع والطاعة لأمرائهم لعرفنا قدر نفوسنا وما نحن عليه من الصدق والالتزام، والصرامة والانضباط، وقد أرسلها عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى صيحة مدوية حيث قال: (إذا ذُكِرَتْ أحوال السلف بيننا؛ افتضحنا كلنا)، نسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة.

ودونك النموذج:

قال المؤرخ الشهير ابن كثير رحمه الله تعالى: (أراد أبو بكر الصديق أن يبعث الجيوش إلى الشام فَشَرَعَ في جمع الأمراء في أماكن متفرقة من جزيرة العرب، وكان قد استعمل عمراً بن العاص على صدقات قضاعة معه الوليد بن عقبة فيهم، فكتب إليه يستنفره إلى الشام: (إني كنت قد رددتك على العمل الذي وَلاَّكَه رسول الله ﷺ مرة وسَمَّاه لك أخرى، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعاذك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك) فكتب إليه عمرو بن العاص: (إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها فَارْم بي فيها)، وكتب إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك ورَدَّ عليه مثله) اهـ من:(البداية والنهاية) فاعكف على أخبارهم، وتشبه بهم: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج من الآية:40)، والدِّين ـ أيها الأخ المجاهد ـ عزيز بدورك، محفوظ بدونك، جعلك الله أسدا من أسود الإسلام، ورجلا من رجاله العظام..

ولن تنجح الخطط ـ إلا أن يشاء الله تعالى ـ حتى تتعوّد الأقدام المشي في درب الطاعة اللّاحب، (المنشط والمكره)؛ وتَجْتَنب (الجهاد على الكيف!)، وتتخطى كل ما تجده في طريقها من متاعب ومصاعب، وتعتقد أن ذلك دَيْنًا **يجب عليها الوفاء به..**

وهاك ميزانا زِنْ به نفسك: (فمن قعد عن الطاعة في المكره، كان فيه من النفاق بحسب قعوده ما لم يكن معذورا) وقد تقدم ـ أعاذني الله وإياك من النفاق ـ..

ففتِّش أيها المجاهد عن خبايا نفسك، والزم غرز أسلافك: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾

فائدة ـ فلتكن منك على بال ـ: (إن الباب الذي يمكن للأمة الإسلامية أن تعود منه للحضارة هو باب الواجب، وهذا يعني أن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، لأن كل فرد بطبيعته توّاق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب..! إذن فلا بد أن نوجه الأمة إلى القيام بالواجب!، لأن المجتمع الذي يرغب في الارتفاع والتقدم لا بد أن يكون لديه فائض جهد، **ولا يمكن تحصيل ذلك الفائض إلا أن يكون الواجب الذي يقوم به، أكثر من الحق الذي يطالب به.**

إن التحلل من التبعات، والرخاوة في تناول الحياة، والإخلاد إلى الدعة والسكون والإقبال على المتاع، والاستسلام للواقع **هو نوع من الخنوع والتقوقع والهروب من المسؤولية الذي لا ينتج إلا أمة ذليلة، ترضى بالدونية، ولا تحاول رفع رأسها..**) اهـ من كتاب: الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة/محمد محمد بدري).

عود على بدء:

إن قضية السمع والطاعة يجب أن يكون لها محل اهتمام عندك، وكُنْ كمن عناهم القائل بقوله:

قوم يرون الحق نصر أميرهم ويرون طاعــة أمره إيمـانا

فطاعة الأمير قربة إلى الله كما تقدم، وبهذا الفضل نُكَفّ شرّ المعصية، فاحذرها فإن سهام الشيطان قاتلة، والجاد من دان نفسه دائما، واتهمها بالتقصير، وطلب منها المزيد من البذل في باب الطاعة قدر الاستطاعة، حتى يحلّق عاليا ويبلغ ذروتها؛ ويكون ممن: ﴿**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾، ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه النقطة: (السمع والطاعة) لكفى بها فائدة.

ولعله بعد الذي مضى ـ أخي المجاهد ـ انفتح لك باب عظيم من فِقْه الجندية ـ وفقك الله لطاعته ـ ونسأل الكبير المتعال أن يصير الحال:

سكن (الجنود) إلى أمير سلامة عف الضمير مهذب الأخلاقِ

أعطتـه صفقتها الضمائر طاعة قبل الأكف بأوكد الميثـــاقِ

ـ لفتة:

جاء في عيون الأخبار - (ج 1 / ص 4/الشاملة): (قال عبد الملك بن مروان: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلاً على كل) اهـ.

تعليق على اللفتة: هيا بنا نتصالح **(والصلح خير)..**

* * *

ثانيا: توقير الأمير والدعاء له:

جاء في كتاب (العمدة في إعداد العدة):

(**مما يلزم الأعضاء من حقوق الأمير عليهم توقيره**، وأدل على هذا بجملة أحاديث رواها ابن أبي عاصم في كتابه السنة ـ باب (في ذكر فضل تعزيز الأمير وتوقيره) ـ.

ـ حديث 1021 ـ عن معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ: «خمس من فعل واحدة منهن كان ضامنا على الله U: «**من عاد مريضا، أو خرج مع جنازة، أو خرج غازيا، أو دخل مع إمامه يريد تعزيزه وتوقيره، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس**» (قال الألباني: حديث صحيح).

ـ حديث 1024 ـ عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله**» (قال الألباني: حديث حسن).

قلت: وإهانة ولي الأمر قد تكون بعصيان أوامره والاستخفاف بها، أو بالسخرية من الأمير بالقول والغمز واللمز أو بوصفه بصفة خَلْقِية أو خُلُقِية فيه تدعو للاستخفاف به، أو بمدح غيره بما فيه تعريض بالذم لهذا الأمير، أو بتشجيع الآخرين على إهانة الأمير وعصيانه، وعموما يدخل في الإهانة كل ما فيه انتقاص لقدر الأمير وتجريحه، وقد أمر رسول الله ﷺ بطاعة الأمير وإن كان عبدا حبشيا رأسه زبيبة أو مجدع الأطراف، فمن أقدم على إهانة الأمير فقد تعرض لإهانة الله له في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالعذاب والحرمان.

ـ حديث 1025 ـ عن أبي بكرة قال: «**من أَجلَّ سلطان الله أجلّه الله يوم القيامة**» (قال الألباني حديث حسن. (كتاب السنة لابن أبي عاصم ط المكتب الإسلامي ص 490 ـ 492) وهذا ينطبق على كل من تولى إمارة على غيره، إذ إنه أمير بحكم الشريعة كما سبق بيانه.

ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**» حديث حسن، رواه أبو داود (رياض الصالحين ـ باب توقير العلماء والكبار ـ).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كان السلف ـ كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما ـ يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها السلطان) (مجموع الفتاوى ج 28 ص: 391).

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) النساء، الآية: 59،

قال: (قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عَظَّموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم) (ج 5 ص: 260)، قلت: ولا شك أن هذا في السلطان والعلماء الصالحين.

تنبيه:

ولا يظن أحد أننا بدعوتنا الرعية إلى توقير الأمير أننا ندعو بذلك إلى تقديسه، وإنما ندعو إلى الوسط كما هي دعوة الإسلام في كل أمر.

فتوقير الأمير وسط بين تفريط وإفراط، أما التفريط فهو إهانة الأمير التي وردت السنة بالنهي عنها والوعيد عليها، وذكرنا بعض صور الإهانة فيما سبق، وأما الإفراط في توقير الأمير فهو أيضا منهي عنه مذموم، ومن صوره السكوت عن منكرات الأمير، وأدهى من ذلك تبرير منكراته وتأويلها على وجه حسن، والمغالاة في مدحه وخلع مالا يجوز من الصفات عليه.

والذي أراه ـ والله تعالى أعلم ـ أن توقير الأمير ليس مقصودا لذاته، **بل من أجل المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة**، وهذا مقصد شرعي هام سبق التنبيه عليه، فإن إهانة الأمير والاستخفاف به مدعاة إلى عصيانه وما يترتب على ذلك من شق عصا الطاعة وتفريق شمل الجماعة، وبهذا ترى أن توقير الأمير فيه سد لذريعة العصيان والشقاق ويدل على هذا الاستنباط أن الأمر بالتوقير إنما هو للأمير بصفته لا بشخصه، والله أعلم.

بل إن جميع ما ورد فيما يلزم الأعضاء (الرعية) من حق الأمير عليهم، (وهو السمع والطاعة والنصح والتوقير) هو في حقيقته يهدف إلى المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة، ذلك المقصد الشرعي الهام الذي لا يصلح للمسلمين دينهم ولا دنياهم إلا به، ألا وهو الجماعة.

وقد ورد الربط واضحا بين طاعة الأمير والمحافظة على وحدة الجماعة في قول رسول الله ﷺ: «**من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية**» رواه البخاري عن ابن عباس) اهـ.

* * *

ثالثا: تقديم النصح للأمير:

أدلة ونُقول على ما نقول:

قال ﷺ : «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» رواه مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه..

وقال ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه..

وقال ﷺ : «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُم، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ**» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه..

جاء في كتاب (العمدة): (**مما يدخل في نصح ولاة الأمور:**

أ ـ قال النووي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم.

قال الخطابي: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور) صحيح مسلم بشرح النووي ج 2 ص 38.

ب ـ ومما يدخل في النصح الإشارة على الأمير بما يخفى عليه من الأمور التي يحيط بها غيره.

ج ـ ومما يدخل فيه أيضا إخبار الأمير بكل ما يؤدي إلى إفساد الجماعة أو تفريق شملها كوجود بعض العناصر السيئة أو المفسدة ونحو ذلك، **وعلى الأمير التثبت والتحقق قبل التصرف**، لقوله تعالى: (**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**) سورة الحجرات، الآية: 6.) اهـ من كتاب: (العمدة في إعداد العدة/راجع إن شئت تتمة الكلام هناك).

فائدة: والأفضل نصح الأمير سرا.

جاء في كتاب (العمدة) بعد كلام سبق: (وهناك دليل آخر على نصح الأئمة سرا، وهو ما رواه البخاري عن

أبي وائل قال: «قيل لأسامة: ألا تكلم هذا؟ قال: قد كلمته مادون أن أفتح بابا أكون أول من يفتحه وما أنا بالذي أقول لرجل ـ بعد أن يكون أميرا علىٰ رجلين ـ: أنت خير بعدما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «يجاء برجل فيطرح في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحاء، فيطيف به أهل النار فيقولون: أي فلان، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ فيقول: إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهىٰ عن المنكر وأفعله» حديث: 7098، قولهم (ألا تكلم هذا؟) وقع عند مسلم (ألا تدخل علىٰ عثمان فتكلمه؟) وكان هذا بسبب ما أنكره بعض الناس علىٰ الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال ابن حجر: (قوله (قد كلمته ما دون أن أفتح بابا) أي كلمته فيما أشرتم إليه، لكن علىٰ سبيل المصلحة والأدب في السر بغير أن يكون في كلامي ما يثير فتنة أو نحوها ـ وقال ابن حجر ـ في رواية سفيان (إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابا، لا أكون أول من فتحه) ـ إلىٰ أن قال ابن حجر ـ قال المهلب: أرادوا من أسامة أن يكلم عثمان وكان من خاصته وممن يخف عليه في شأن الوليد بن عقبة لأنه كان ظهر عليه ريح نبيذ وشهر أمره وكان أخا عثمان لأمه وكان يستعمله، فقال أسامة: قد كلمته سرا دون أن أفتح بابا، أي باب الإنكار علىٰ الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة، ثم عَرَّفهم أنه لا يداهن أحدا ولو كان أميرا بل ينصح له في السر جهده، وذكر لهم قصة الرجل الذي يطرح في النار لكونه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله ليتبرأ مما ظنوا به من سكوته عن عثمان في أخيه ـ إلىٰ أن قال ـ ابن حجر ـ وفي الحديث: تعظيم الأمراء والأدب معهم وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا ويأخذوا حذرهم، بلطف وحسن تأدية، بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير) فتح الباري ج 13 ص 51 ـ 53.

قلت ـ صاحب العمدة ـ : وإنما قلت الأفضل النصح سرا، ولم أقل الواجب، لأنه وردت أدلة أخرىٰ علىٰ النصح علانية.

ـ منها مراجعة المرأة لعمر بن الخطاب بشأن مهور النساء انظر تفسير قوله تعالىٰ: (**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا**) سورة النساء، الآية: 20، وقال ابن كثير في هذه القصة (أخرجها أبو يعلىٰ عن مسروق بسند قوي).

ـ ومنها نُصح الصحابي عائذ بن عمرو للأمير عمرو بن سعيد الأشدق بشأن حُرْمَة القتال في مكة، فيما رواه البخاري عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد ـ وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة ـ (ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولا قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: حَمِدَ الله

وأثنى عليه ثم قال: إن مكة حَرَّمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما) الحديث: 104.

ـ ومنها مراجعة سلمان لعمر بن الخطاب لما رأى ثوبه طويلا، رضي الله عنهما، والأدلة في هذا كثيرة، كمراجعة بعض الصحابة لمعاوية لما استخلف ابنه يزيد، وغير ذلك.

والذي أراه ـ والله أعلم بالحق ـ أن الإسرار بالنصح للأمير أو الجهر به يتوقف على:

أولا: حال المنصوح (الأمير) فيختار الناصح أنسب وسيلة حسب حال المنصوح وما يقبله.

ثانيا: حال الموجودين: فقد يكون نصحه سرا أولى حتى لا يجترئ الناس على الأمير فتقع فتنة وتفترق الكلمة كما فعل أسامة بن زيد مع عثمان بن عفان رضي الله عنهم، وقد يكون الجهر بالنصيحة أفضل حتى يسمع الناس فينتصحوا بنفس النصيحة كما في نصح أبي شريح بشأن تحريم مكة ليكف الناس عن الخروج في جيش الأمير الذاهب للقتال في مكة، وهكذا.

ثالثا: حال النصح: ألا يقوم مقام رياء وسمعة بنصحه، ليقال عنه: هذا الذي نصح الأمير عندما سكت غيره، وتحضرني هنا قصة شكاية أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب قال ابن كثير: (وفيها ـ سنة 16هـ ـ شكا أهل الكوفة سعدا في كل شيء، حتى قالوا: لا يحسن يصلي، فعزله عنها ـ إلى أن قال ابن كثير ـ وفي صحيح مسلم أن عمر بعث من يسأل أهل الكوفة فأثنوا خيرا إلا رجلا يقال له: أبو سعدة قتادة بن أسامة قام فقال: أما إذ أنشدتنا فإن سعدا لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية، ولا يخرج في السرية، فقال سعد: اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة، فأَطِل عمره وأَدِم فقره وعرضه للفتن. فأصابته دعوة سعد، فكان شيخا كبيرا يرفع حاجبيه عن عينيه، ويتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن، فيقال له في ذلك، فيقول: شيخ كبير مفتون أصابته دعوة سعد. وقد قال عمر في وصيته ـ وذكره في الستة ـ فإن أصابت الإمرة سعدا فذاك، وإلا فيستعين به أيكم ولي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة) [البداية والنهاية:101/7].

فالصواب إن شاء الله تعالى أن يراعي الناصح هذه الأحوال ثم يتخير الأسلوب الأنسب: الإسرار أو الجهر، فإن التبس عليه الأمر فالإسرار أولى إن شاء الله تعالى لحديث عياض بن غنم المذكور في أول هذه المسألة ولقصة أسامة بن زيد مع عثمان بن عفان رضي الله عنهم) اهـ من: (العمدة).

ومن المواطن التي ينصح فيها الأمير علنا، حالة وقوعه أو ارتكابه منكرا لا لبس فيه ويكون معلنا به أمام الناس، والله أعلم.

وبناء على ما تقدم فإذا نصحت ـ أيها الأخ المجاهد ـ أميرك فلا توزّعها ههنا وههنا، فيطير بها كل مطير وربما يضعها في غير موضعها، واحذر أيها السامع من كلمة همس يضعها ـ من زلت قدمه ـ في أذنك، فقد تفتّ ـ بسبب نشرها ـ في عضد الجيش دون أن تشعر! والحقيقة أن الذي يفعل هذا يوقع نفسه في جملة من الأمور رديئة، وليُعلم بأن (**إشاعة النقد دون ضرورة نهج باطل**، ويشهد القلب أن فيه دخن) ـ وقانا الله مضلات الفتن ـ ما ظهر منها وما بطن..

* * *

رابعا: الابتعاد عن النجوى والتخطيط دون علم الجماعة:

قال تعالى: (**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**) (سورة النساء الآية:114)، يقول سيد رحمه الله ـ وتأمل جيدا ـ: (لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى؛ وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة، وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمراً.. وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي ﷺ مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة، هو ألا تتكون «جيوب» في الجماعة المسلمة؛ وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها!!، أو بأفكارها!! واتجاهاتها!! ، وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمراً بليل ، **وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل!!**؛ أو تخفيه عن الجماعة وتستخفي به عن أعينها - وإن كانت لا تختفي به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول .

وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها، ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة، **وكان المجتمع المسلم كله مجتمعاً مفتوحاً**؛ تعرض مشكلاته ـ التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيرها!؛ والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن ـ عرضاً عاماً، وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعاً نظيفاً طلق الهواء، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره، إلا الذين يتآمرون عليه! أو على مبدأ من مبادئه ـ من المنافقين غالباً ـ **وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع**.

وهذه حقيقة تنفعنا، فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئاً من هذه الظاهرة، **وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات!**

والنص القرآني هنا يستثني نوعاً من النجوىٰ.. هو في الحقيقة ليس منها، وإن كان له شكلها:

(إلا من أمر بصدقة أو معروف، أو إصلاح بين الناس)..

وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير، فيقول له: هلم نتصدق علىٰ فلان فقد علمت حاجته في خفية عن الأعين، أو هلم إلىٰ معروف معين نفعله أو نحض عليه، أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعاً.. وقد تتكون العصبة من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور، وتتفق فيما بينها سراً علىٰ النهوض بهذا الأمر، فهذا ليس نجوىٰ ولا تآمراً، ومن ثم سماه «أمراً» وإن كان له شكل النجوىٰ، في مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر في معروف يعلمه أو خطر له.. علىٰ شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله: **﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾)** اهـ من: [الظِّلال:2/ 238 ـ 239]

وعليه فيجب ـ أيها المجاهد ـ العمل وِفْق ما تسطّره لك القيادة:

وهذه قضية ينبغي أن تكون محلّ أنظارنا، وإلا فإنه متىٰ تتنوع الخطط، وتكثر الاتجاهات، وكلٌّ يعمل علىٰ شاكلته، فلن نصل إلىٰ ما نصبوا إليه، والعمل بخلاف ما تسطره القيادة آفة من الآفات يجب أن تُجتنب..

يقول أحد القادة الإنجليزيين ـ و(الحكمة ضالة المؤمن أنىٰ وجدها فهو أحق بها):

(إني أدخلت عنصرا هاما في نظام العمل، وهو أن أوامر القيادة يجب أن لا تناقش من قبل الضباط الصغار كما لاحظت عادة في كثير من الحالات، لأنه متىٰ كثرت الخطط لابد أن يفشل الجنود، لكونهم غير واثقين من صوابية خطة واحدة) مجلة الحوادث اللبنانية عدد 865 الصادر في 8/6/1973م.

وجاء في: (فلسفة الميدان/رؤىٰ في التخطيط العسكري، من تأليف: يوسف بن حسن حجازي) ما يلي:

(وفن التخطيط لا ينبغي أن يكون لدىٰ الجميع، فهو مختص بمن يدير المعارك، حيث إن وجوده لدىٰ الجميع يعني ذهاب قيمته وحيويته وانخفاض تقبله بسبب عملية التأقلم بعدما يصير روتينا لديهم) اهـ.

وبعد الذي تقدم؛ فليعلم بأن العمل الجماعي لا يصلح أن يدخل عليه التخليط، أو أن نسير فيه من دون تخطيط.. (راجع مشكورا كتابات ودروس الشيخ أبي مصعب السوري حفظه الله تعالىٰ) لتخرج في ذلك بمحصِّلة، واجعل لعقلك بمن صَحوا صِلة، والشيخ قد ضرب في ذلك بسهم وافر ـ وفقك الله تعالىٰ ـ..

*　　　*　　　*

خامسا: الجدية في العمل وعدم أخذ أوامر القيادة بالرخاوة:

أخي المجاهد: (إن أمر هذا الدين عظيم عند الله جل وعلا عظيم في حياة الإنسان، عظيم في حركة الكون، قال سبحانه: ﴿**إنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ (المزمل:05).

وأمر بهذه المكانة والخطورة.. "يجب أن يؤخذ بقوة، وأن تكون له جديته في النفس، وصراحته وحسمه، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة، ولا في تميع، و لا في ترخص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها مَن طبيعته الرخاوة والتميع والترخص، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر" (ظلال القرآن).

إن ضرورة العمل ستبقى فكرة باردة في الذهن، أو إرادة باهتة في النفس، لا يمكن أن تمتلك الجوارح إلاّ إذا استنهضتها معاني الجد الذي تصغر إلى جواره لغة الكلام.) ما بين قوسين من مقال: (فخذها بقوة/سيف الدين الأنصاري).

فأوامر القيادة ـ أيها المجاهد ـ ينبغي أن تؤخذ بجد ونشاط، حتى تسير الخطط وفق نظام محكم، ووقت محدد، ويكمل بعضها بعضا، فالمشروع متكامل فإن تعطل في ناحية، أثر في أخرى، وهكذا.. وليكن شعارك **من اليوم: (مضى عهد النوم)**.. وخُذ هذه التعبئة.. يقول سيّد رحمه الله تعالى عند تفسير سورة (المزمّل):

(..فقد علم رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك نوم! وأن هنالك تكليفاً ثقيلاً ، وجهاداً طويلاً ، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه ينام!

وقيل لرسول الله ﷺ (قُم).. فقام. وظلّ قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً! لم يسترح، ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظلّ قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، المكبّل بأوهاق الشهوات وأغلالها.. حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر.. بل معارك متلاحقة.. مع أعداء دعوة الله المتألّبين عليها وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتمدّ جذورها في التربة وفروعها في الفضاء، وتظلّل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية

حتى كانت الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتتهيّأ للبطش بها على تخومها الشمالية.

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى معركة الضمير قد انتهت، فهي معركة خالدة، الشيطان صاحبها؛ وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني.. ومحمّد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة، في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه، وفي جهد وكدّ والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة، وفي نصب دائم لا ينقطع.. وفي صبر جميل على هذا كله، وفي قيام الليل، وفي عبادة لربه، وترتيل لقرآنه وتبتّل إليه، كما أمره أن يفعل وهو يناديه: **(يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا، إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا، إن لك في النهار سبحاً طويلا، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا)**.

وهكذا قام محمد ﷺ وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً،لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد، منذ أن سمع النداء العلوي الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب، جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء..

..والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة، تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم، وتصوّر الإعداد له والتهيئة بقيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذِّكر الخاشع المتبتّل، والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذِّبين، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة!..

..وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية الضالة، لِيَرُدَّها إلى ربها، ويصبر على أذاها، ويجاهد في ضمائرها؛ وهو متجرّد من كل ما في الحياة من عرض يغري، ولذاذة تُلهي، وراحة ينعم بها الخليّون، ونوم يلتذّه الفارغون!..

..**(يا أيها المزمّل، قم..)**.. إنها دعوة السماء، وصوت الكبير المتعال.. قم.. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيّأ لك، قُم للجهد والنّصب والكدّ والتّعب، قم فقد مضى وقت النوم والرّاحة.. قُم فتهيّأ لهذا الأمر واستعدّ..

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش، في البيت الهادئ والحضن الدّافئ، لتدفع به في الخضمّ، بين الزعازع والأنواء، وبين الشدّ والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء..

إنّ الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير، فماله والنوم؟ وماله والرّاحة؟ وماله والفراش الدّافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئنّ وينام : «**مضى عهد النوم يا خديجة**»! أجل مضى عهد النّوم وما عاد منذ اليوم إلا السّهر والتعب والجهاد الطّويل الشاق!) انتهى كلامه، وفي ذلك ذكرى لمن يتذكر، واعلم أيها الأخ المجاهد أن من يرسف في القيود والأغلال يبقى في آخر القافلة، وفقنا الله لأن نكون في أولها لا آخرها..

*　　　*　　　*

سادسا: الحرص على التفقه في الدين خصوصا والتوعية العامة عموما (وقد ذكرناه في رسالة (العشر الجياد) ونعيد الإشارة إليه هنا لأهميته):

راجع فصل: (حكم طلب العلم للمجاهد) و(العلم اللازم للطائفة المجاهدة/ من كتاب العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله تعالى)، وانظر: (الوقفة الأولى/الحرص على نشر العلم الشرعي/من رسالة: العشر الجياد لأمراء السرايا والكتائب والأجناد).

ولا يفوتنا المقام هنا أن نذكِّرك بقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» البخاري، وفقني الله وإياك وسائر المجاهدين للوعي والتفقه في الدين، آمين، وإلا (سيغتالنا الجوع العقلي).

*　　　*　　　*

سابعا: إن لم يقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟:

أخي المجاهد: قد تجد في ساحات الجهاد مناصب شاغرة ولا من يسدها! وقد ترى تهربا عجيبا من تحمّل المسئوليات! وأحيانا يكون الوهن في العزائم..! وتلمس غيرة على الدين فيها دخن.. محنة قديمة حديثة!..

يقول الشيخ المجاهد عبد الله عزام ـ رحمه الله تعالى ـ: (**إن أزمة العالم الإسلامي هي أزمة رجال يضطلعون بحمل المسؤولية والقيام بأعباء الأمانة**، وكما جاء في الصحيح: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلته.

أي لا تجد في كل (مائة جمل) واحدا يحتملك في أسفارك، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لصفوة من صحبه تمنوا، فتمنى كل واحد منهم شيئا ثم قالوا: تمن يا أمير المؤمنين، فقال: أتمنى أن يكون لي ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة.

إن الرجال الذين يعلمون قليلون والذين يعملون أقل، وإن الذين يجاهدون أندر وأغرب، وإن الذين يصبرون على هذا الطريق لا يكادون يذكرون) اهـ، ونقول: صدق الشيخ وأصاب كبد الحقيقة!..

ويقول مصطفى صادق الرافعي:

(**إنما الرجولة!** في خلال ثلاث:

ـ عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها..

ـ وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم.

ـ والثالثة: قدرته على العمل والقبول إلى النهاية.) اهـ من: (وحي القلم: ج1/368).

فقم أيها المجاهد بما كلفك أميرك به ورأوا أنك تصلح له، وليكن ديدنك الأجر من رب العالمين..تقدم أيها المجاهد ولا تحتقر مواهبك، ولا تنظر لنفسك بعين الازدراء، فإن ذلك هو الداء!..

أيها الأخ المجاهد: إن (العنصر البشري هو الأساس لكل نهضة، وهو العماد لكل حركة، وبدونه تموت في مهدها أي فكرة، **وعندما يشعر الأفراد في أي أمة أنهم غير قادرين على العطاء فإنما هم بذلك يُصدرون حكماً بالإعدام على أنفسهم ومجتمعهم، شاؤوا أم أبوا.**

وذلك أنهم بتقريرهم هذا الشعور يعلنون العزم المبيّت على تجميد الحركة والعمل، ليصبح ذلك المجتمع بعد ذلك كالجثة الهامدة..

لقد كان يقين السلف بقدرتهم على البذل والعطاء نابعاً من استشعارهم المسؤولية الفردية القائمة على الإحساس بالعزة الإيمانية؛ فجعلتهم مشاعل هداية، ونماذج فريدة في البذل والعطاء والتضحية؛ فكان الواحد منهم بأمة.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم　　إذا جمعتنا يا جرير المجامـــعُ

إن مما يجدر بنا أن نستحضره في كل حين أنه لا أحد في المجتمع المسلم يمكن أن يوضع في قائمة من هو: (غير قادر على العطاء)، بل الجميع يملكون شيئاً ما ـ إن لم يكن أشياء ـ يستطيعون من خلاله خدمة أمتهم، **وهذا النسق الاجتماعي، قد قرره المصطفى ﷺ بقوله وفعله، والتزمته الأمة الإسلامية منذ فجرها الأول.**

فلو نظرنا إلى حديث الهجرة مثلاً لتجلّى لنا ذلك في أروع صورة؛ فالصدِّيق أمين السر ورفيق السفر، والجارية تحفظ السر وترتب الزاد، والصبي ينقل الأخبار ويعفو الآثار، كل ذلك في صورة مشرقة لتنوع

البذل وتكامله بحسب القدرة.

وفي المدينة يدعو الرسول ﷺ الناس للبذل قائلاً: «**تصدقَ رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة**» رواه مسلم.

بل في قمة أعمال البذل والعطاء ـ في الجهاد في سبيل الله ـ يبرز هذا المَعْلَم الإسلامي في أجلىٰ صوره؛ فالكل يبذل، والجميع يُضحّي، حتىٰ إذا بقي الضعفة والمساكين الذين لا مال لهم ولا قوة يجاهدون بها يبقىٰ لهم دورهم الذي ينبه إليه الرسول ﷺ بقوله: «**إنما ينصُر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**» رواه النسائي.

إن خطر وأد الذات وتحييدها عن العطاء لا يمكن تجاهله أو تناسيه، خاصة في هذه الحقبة التي يقبع فيها أهل الإسلام في مؤخرة الركب، وإن هذا الخطر مما ينبغي تداركه وعلاجه حسماً لداء المواتِ الذي دبّ في أوصال الجسد الإسلامي المنهك) اهـ من مقال بعنوان: (اكتشاف الطاقات وتوظيفها/علي القحطاني).

هذا وكأن الشيخ أبا قتادة فك الله أسره، يعني من يتنصل من المسؤوليات فيقول في كلمات كأنها تتزاحم في فمه وقلمه: (**وأن حياة الأمم والشعوب في فهم وتحمل المسؤولية، بحيث يرى كل واحد أنه المعنيٌّ بالخطاب وأن الأمر له دون بقية أهله، محتقب بالإثم إن فرط فيه أو قصّر عنه، وما حقق الأولون من أعمال عظيمة كانت لها الفرادة في تاريخ البشرية، والصدارة في إنجازات الأمم إلا لهذه العقائد والمفاهيم**، وحين دخل النسك العجمي والتعبد الجاهلي علىٰ أمتنا وانسحب الناس عن مسؤولياتهم عاد الجَمّرُ حطباً بارداً ورفاتاً هيناً، **وحين يحسّ المرء بأهميته لأمته وأهميةِ أمته له تكتمل دورة الحياة وتحصل المنجزات**، أما حين تموت هذه الصلة بين الفرد والأمة، فلا يرىٰ لنفسه شأناً معها ولها، ولا يرىٰ لأمته قيمة **فحينها يكون الموت الحقيقي لكل المشاريع التي هي حقيقة حياة الأمم ومقاصدها)** اهـ من: (الأربعين الجياد لأهل التوحيد والجهاد)..

يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله: (لا بد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة ويديرون دفتها، ويربون الرجال، ويملئون كل فراغ. وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحداً إثر آخر، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال) اهـ.

قد يقول قائل إنما يعنىٰ بهذا الكلام القائد فهو الذي يربِّي ويكوِّن، ويوجِّه ويرشد، فَلِمَ عنيت الجندي به؟، أقول: ذكرته لأجل أن يطاوع الجندي قائِدَه في أَمّرِ التكوين، ويلبِّي رغبته ولا يتهرب من ذلك!، بل يجب أن

يكون مستعدا ـ كل الاستعداد ـ لذلك، ويحرص عليه.. إلخ.. ثم لعله يكون من: (قادة المستقبل) ومن هنا حشرت كلام الندوي في هذه النقطة فتأمل!.

أيها المجاهد: مَنْ للجهاد يدفع عجلته؟ ومن يحمل هم هذا الدِّين؟ وأسئلة كثيرة يضيق بها المقام.. فإياك والمعاذير التي تقود إلى القعود ـ عافاك الله ـ..

ومرة أخرى لمريد الراحة: (إنّ الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير، فماله والنوم؟ وماله والرّاحة؟ وماله والفراش الدّافيء؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟!)..

*　　　*　　　*

الخاتمة ـ نسأل الله حسنها ـ :

أيها الأخ المجاهد: اعلم أن الحرب على الإسلام وأهله شعواء، فلا بد أن نكون على قدر كبير من تحمُّل مسؤولية خوض غمار المعركة:

وتلك حُروبٌ من يَغب عن غِمَارِها　　　ليسلم يقرعُ بَعدها سِنَّ نادمِ

فلا بد أن نكون في حجم التحديات في صبر وثبات، والالتزام بجملة من الأمور؛ **منها:** ارتباط متين بالله وتوبة صادقة من أخطاء الماضي ومن أيِّ خطأ يحصل خلال المسيرة، أخوة صادقة ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ و(**كالجسد الواحد**)، نَبْذ للخلاف والشقاق، همة عالية تناطح الكواكب، عزيمة لا تنثني، صبر كصبر الجماد، مراجعة للأخطاء، تجديد للمسار، حركة دائبة (مثل النملة تجدّ لتجِد، وتدَّخر لتفتخر، ولا تبالي ما دامت دائبة، أن ترجع مرة منجحة ومرة خائبة)..

وغيرها وغيرها مما يجب، فهكذا يريدنا الإسلام أن نكون؛ أولا نكون!

ثم اعلم علم اليقين أن حظ المجاهد من هذا الجهاد؛ أن من عمل له أكرمه الله بعمله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَّ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ العنكبوت الآية: 69)، ومن ترك العمل له؛ فقد أبعد الخير عن نفسه: ﴿**وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَّ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ (العنكبوت، الآية: 6)، و(ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه؛ منها: البُخْل: ﴿**وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**﴾ (محمد، من الآية: 38))Œ

Œ ـ وتمامه: (ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: البغي، قال اللهّ تعالى: ﴿يأيّها النّاس إنما بغيكم على أنفسكم﴾، والمكر، قال اللهّ تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ والنّكث، قال عز وجل: ﴿فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾

أخي المجاهد:

(إننا أمة عمل وإقدام، ولسنا أمةَ كلام، قال سبحانه: ﴿**وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (التوبة، الآية: 105)، وقال عليه الصلاة والسلام: (**وَمَنْ أبطأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**) (الترمذي)، فالمعرفة المقرونة بالتنفيذ، والإرادة المصحوبة بالعزيمة والتوكل **هي التي شيدت** ـ عبر التاريخ ـ عز هذه الأمة المجيد، وهي التي تضمن ـ دائما ـ لهذا الدِّين وقاره في القلوب وتكفل له حرارته في النفوس، "وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها" (زاد المعاد: 10/3).

إن الصراع من حولنا مستعر، والعدو في حربه للإسلام مجتهد، قال سبحانه: ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ (إبراهيم: 46)، فهي حرب على الإسلام والمسلمين لا هوادة فيها، هدفها معلوم (**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**) (النساء:89)، وطبيعتها قديمة متجددة ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**﴾ (الأحزاب:10)، وأهم وسائلها ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ (الأنفال:73)، والموقف الشرعي منها واضح ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (آل عمران:139)، ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ (الأنفال:60)، **فأين أنت؟..**

إن العمل بهذا الدين وله ليس كلمة تقال باللسان، ولا هو شعار يرفع بلا رصيد من الواقع، وإنما ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة:111)، **والصدق في العمل حالة من التيقظ المتواصل الذي يدفع العاملين إلى الاغتنام الكامل للفرص، والحركةِ الدائبة التي لا تحول دونها العوائق، والإيجابية العالية التي تفتح الآفاق وتكتسب مع الزمن مواقع التأثير)** ما بين قوسين من: (**فخذها بقوة/**سيف الدين الأنصاري).

وتيقّن ـ أخي المجاهد ـ بأن النصر لك بإذن الله تعالى، فلا تهن ولا تحزن، قال من لا يخلف وعده: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (النور الآية: 55)، إنه وَعْدٌ يشحذ الهمم،﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج من الآية: 40)، فلا تنس الشرط: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، وفقنا الله وإياك

للإيمان والعمل الصالح بمنه وفضله..

هذا آخر ما يُذكر في هذه **(البنود)**، والتي أحسبها حنّـتٌ وحـيّتٌ، وإن قصّرت؛ فحسبي أني سَعَيْت، وما ونَيْت.. والكلام ـ كما قيل ـ صلف تياه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، والوقت ثمين والتقصير حاصل، فإن حصل فالعذر قد وضح، وقد عَزَوْت غالبا كلّ قول لقائله لأخرج من معرَّة تَبِعَة مسائله، فلا يَعْدَم عنك أحد أمرين: إمّا إمساكا بمعروف, أو تسريحا بإحسان.

*　　　*　　　*

اعتذار واستغفار:

تقدم أن الغرض من كتابة هذه الرسالة، فهي لم تحط بجميع ما يجب على الجندي من تكاليف ومهمات، وإنما كانت إشارات على بعض الخلل الذي رأيت التنبيه عليه (وهي تخص إحدى الجبهات)، ومع ذلك فأعتذر عن كل تقصير، وأستغفر الله من كل خطأ.

*　　　*　　　*

مهر الرسالة:

قال رسول الله ﷺ: «**من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» (صحيح الترغيب والترهيب: 1/208 وهو جزء من حديث ابن عمر رضي الله عنهما).

أخي القارئ: بين يديك هذه الرسالة، فلك غُنْمها وعلى جامعها غُرْمها، والله المسؤول أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، مُدْنية من رضاه والفوز بجنات النعيم، وقد رضيت من مهرها بدعوة منك بظهر الغيب، فلا تنسنا من دعائك.

تمّ بفضل الله تعالى هذا الجمع الطّيّب:

بالله يا ناظرًا فيه و منتفعًا مِنْهُ سَلِ الله تَوْفِيقًا لِجَامِعِهِ
وَقُلْ أَنْلْهُ إِلَهَ الْعَرْشِ مَغْفِرَةً وَاقْبَلْ دُعَاه وَجَنِّبْ عن مَوَانِعِهِ

فاللهمّ لا تجعل ما ألّفته قرائحنا مردودا علينا بالطّردِ والإبعاد..

ولا ما سطَّرته أناملنا شهيــداً علينا يوم يقوم الأشهاد..

لعمري لقد نَبَّهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنانِ

وقد أفلح ـ بإذن الله ـ من انتهى إلى ما سمع..

والله أعلم، وعلمه أتمّ وأحْكم..

ثم الصلاةُ على خَيرِ الخليقةِ مَن كَفَاهُ مُعْجِزَةً الشقُّ في القَمَرِ
وآلِهِ الطيبينَ الطُــهرِ قَاطِبَةٍ وَصَحبِهِ الُمكْرَمِينَ السَّادَةِ الغُرَرِ
مَا هَبّتِ الريحُ واهْتَزَ النباتُ بِها وما تَغَنَّتْ حَمَامُ الأَيْكِ فِي السَّحَرِ

وصلّ اللهمّ على نبيّنا محمّد، وآله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

والحمد لله ربِّ العالمين.

جمع وترتيب العبد الفقير: أبي الأشبال المغربي عفا الله عنه وعن جميع المسلمين.

تمت ـ بحمد الله تعالى ـ يوم الاثنين 22ذو القعدة 1433هـ، الموافق لـ: 2012/10/08 م.